اليقظة والتفكر

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...﴾

[سبأ: ٤٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله

وبعد...،

أخي المسلم ...

أختي المسلمة ...

تلك هي الصفات الأولى التي تفرعت عنها صفات الرجال الأفذاذ العظماء من أصحاب محمد ﷺ!

يقظة القلب، وتفكر العقل، ونور البصيرة،وصدق العزيمة.

يقظة تطرد الغفلة، وفكرة تنير البصيرة، وتثير العزيمة، وتبعث الإرادة.

تلك هي المنازل الأولى في مدارج السالكين، التي ينبغي أن يتحلى بها العبد في أول طريق العبودية.

***نداءات القرآن لإيقاظ الإنسان:**

فها هي تلك النداءات الربانية لعباده تتوالى فتزيح عنهم غشاوة الغفلة، وغطاء الشهوة:

﴿يأيها النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[1].

---

(١) فاطر:٣

﴿يأيها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِالله الغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

إنها نداءات تبعث على اليقظة، وتدعو إلى الفكرة!

إنها تدعو العباد أن يتفكروا في نعم الله تعالى عليهم، وفي تفرده بذلك الإنعام، فيفردوه بالعبودية كما أقروا له بالتفرد في الربوبية.

تدعو العباد أن يتفكروا في زوال هذه الحياة، وأن ما يتعلقون به فيها إنما هو السراب، وأن ما وعدهم الله تعالى هو الحق فيعلمون أن الشيطان إنما يدعوهم إلى عذاب السعير.

تدعوهم أن يتفكروا في افتقارهم جميعًا إلى الله تعالى وحاجتهم إليه، وأنه ما من مخلوق إلا وهو مفتقر إليه في جميع أحواله، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فيدعوهم ذلك إلى التوجه إليه سبحانه وتعالى بحاجاتهم فهو الغني سبحانه دون من سواه.

تدعوهم أن يتفكروا في هول المطلع، وزلزلة الساعة، وتصور لنفوسهم مشاهد الحشر التي تأخذ النفوس، وترتجف لها القلوب.

تدعوهم أن يتفكروا في استحقاقه سبحانه للعبودية، كما انفرد وحده بالخلق والربوبية.

﴿يأيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) فاطر:٥-٦.

(٢) البقرة:٢٢.

*القرآن كله إيقاظ للقلوب من غفلتها:

فالقرآن كله من أوله إلى آخره إيقاظ للقلوب، وبعث للنفوس من سباتها وغفلتها، وهو لا يفتأ ينعى على الناس غفلتهم، ويوبخهم ويبكتهم عليها، ويصور لهم عاقبتها المريرة.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[1].

*تفاوت الناس في الغفلة:

والغفلة داء يعرض لبني آدم، إلا أن منهم من تستحكم به الغفلة حتى لا يفيق لمطلوب الله تعالى منه، فينسى نفسه، ويجهلها ويجهل ما يصلحها ويشفيها من دائها العضال، كما قال تعالى: ﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[2].

ولا تستحكم الغفلة إلا بكافر معرض عن دين الله تعالى، أما المسلم فقد تعرض له الغفلة فيقع في المعصية ثم يفيء إلى الطاعة فهو كخامة الزرع التي تميل مع الريح وتفيء معها.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع: من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء. والفاجر كالأرزة صماء معتدلة، حتى يقصمها الله إذا شاء"[3].

*والخامة: بالخاء المعجمة وتخفيف الميم هي: الطاقة الطرية اللينة، أو الغضة

---

(١) الأنبياء:١-٣.

(٢) الحشر:١٨ ـ ١٩.

(٣) الحديث في صحيح البخاري كتاب المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض وقول الله تعالى: ﴿من يعمل سوءًا يجز به﴾ (١٠/ ١٠٧)، (ح٥٦٤٤) وطرفه في(٧٤٦٦).

أو القصبة.

* والأرزة: بفتح الهمزة وقيل بكسرها وسكون الراء بعدها زاي هي: الثابتة في الأرض، وقال ابن سيده: الأرز العرعر، وقيل: شجر بالشام يقال لثمره الصنوبر وقالوا: شجر معتدل صلب لا يحركه هبوب الريح.

* تعهد النبي ﷺ نفسه وأهله وإيقاظه لهم:

وقد كان النبي ﷺ يتعاهد نفسه دائمًا كيلا يغفل عن ذكر الله تعالى وطاعته، وكان يتعهد أهله دائمًا فيوقظهم من غفلة عارضة لطاعة الله تعالى.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أم سلمة ـ زوج النبي ﷺ ورضي الله تعالى عنها ـ أنها قالت: استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال: "سبحان الله! ماذا أنزل الليلة من الفتن، وماذا فتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحبات الحجر، فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[1].

قال الحافظ: «وإنما خصهن بالإيقاظ لأنهن الحاضرات حينئذ، أو من باب "ابدأ بنفسك ثم بمن تعول... وأشار ﷺ بذلك إلى موجب إيقاظ أزواجه، أي ينبغي لهن ألا يتغافلن عن العبادة ويعتمدن على كونهن أزواج النبي ﷺ»[2].

يطرق النبي ﷺ ابنته فاطمة وابن عمه عليًّا بالليل ليوقظهما لقيام الليل وطاعة الله.

فقد روى البخاري في صحيحه أيضًا بإسناده عن علي بن حسين أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال:« ألا تصليان؟»، فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُولٍّ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وأطرافه في(١١٥-١١٢٦-٣٥٩٩-٥٨٤٤-٦٢١٨-٧٠٦٩).
(٢) الفتح(١/ ٢٥٤-٢٥٥).

يضرب فخذه وهو يقول: « وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا»[١].

*تعهد النبي ﷺ أصحابه وإيقاظه إياهم:

وقد كان النبي ﷺ يتعهد أصحابه كذلك إذا ما عرضت لهم غفلة كذلك، فها هو يتعهد عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، فعن عبدالله بن عمرو قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا عبدالله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل» [٢].

*استيقاظ الصحابة -رضي الله عنهم- للغاية التي خلقوا لأجلها:

استجاب أصحاب النبي ﷺ لتلك النداءات الربانية، والتوجيهات النبوية، فقد أثرت فيهم تلك القدوة النبوية، وآتت ثمارها النورانية، فها هي زوجات النبي ﷺ يستيقظن فيصلين من الليل، ويتفكرن في ملكوت السموات والأرض.

وها هو علي ﷺ وفاطمة بنت النبي ﷺ لا ينامان إلا على ذكر الله تعالى يسبحان ثلاثًا وثلاثين ،ويحمدان ثلاثًا وثلاثين ،ويكبران أربعًا وثلاثين.

ها هو علي ﷺ لا يدع ذلك التسبيح قبل نومه في ليلة مهما كانت الشدة والبأس، فيخبر عن نفسه أنه ما ترك ذلك التسبيح في ليلة قط، حتى ولو كانت ليلة قتال وبأس شديد.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن ابن أبي ليلى، حدثنا علي أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى في يدها، وأتى النبي ﷺ سبي، فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال النبي ﷺ:" على مكانكما"، فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: "ألا

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه وأطرافه في(١١٢٧-٤٧٢٤-٧٣٤٧-٧٤٦٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب التهجد، باب: ما يكره من ترك قيام الليل لمن يقومه(١١٥٢)، ومسلم في الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر(١١٥٩).

أعلمكما خيرًا مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما أن تكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتسبحاه ثلاثًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم"، وفي بعض طرقه، قال علي: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين»[١].

وها هو عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- يعظه رسول الله ﷺ في قيام الليل، وينصحه ألا يغفل عنه أو يتهاون فيه، فإذا هو بعد ذلك لا ينام الليل، يقوم الليل فلا يفتر، ويصوم النهار فلا يفطر، حتى يلومه النبي ﷺ على ذلك أيضًا ليرده إلى حد الاعتدال في العبادة.

فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: قال لي النبي ﷺ: «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟"، قلت: إني أفعل ذلك. قال:" فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينُك، ونفهت نفسك، وإن لنفسك حقًا ولأهلك حقًا، فصم وأفطر، وقم ونم"[٢].

لقد كانت اليقظة في أمر الله تعالى من الصفات الأصيلة في أصحاب محمد ﷺ كأنما قد طبعت تلك الصفة في معادنهم، فقد تحلى بها كثير من أصحاب النبي ﷺ قبل إسلامه، فكانت سببًا يقوده إلى الحق.

فها هو عمر بن الخطاب ﷺ يدخل في الإسلام لسماع آيات من القرآن[٣].

وها هو الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ يأتي النبي ﷺ فيستمع منه إلى سورة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٥/ ٥٧٣-٥٧٤) ط الشعب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب "التهجد"(٢٠) في(١١٥٣) وقال الحافظ: "نفهت" بنون ثم فاء مكسورة أي: كلت، هجمت عينك: بفتح الجيم أي غارت أو ضعفت لكثرة السهر.

(٣) قصة إسلام عمر ﷺ ذكرها الهيثمي في "المجمع"(٩/ ٦٣-٦٤) مطولة وقال: "رواه البزار وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف". وقد أورد قصة إسلامه ولها روايات متعددة لا تخلو كلها من ضعف، لكن كثرة مخارجها تدل على أن لها أصلاً.

الإخلاص والمعوذتين فيسلم في الحال[١].

وها هو عمر أيضًا يثور لوفاة النبي ﷺ فيصيبه من شدة الحزن غفلة عارضة عن بعض ما أنزل الله في كتابه فيقرأ أبو بكر ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[٢].

فيلقي عمر بجرانه إلى الأرض، وتهدأ نفسه من ثورتها، ويعلم أنه أمر الله الذي لابد منه[٣].

وهكذا أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

ينبغي أن تكون يقظًا دائمًا لأمر الله تعالى.

يقظًا للغاية التي خلقك لأجلها حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤].

يقظًا لنداءات القرآن المتكررة بالرجوع إلى الله والإنابة إليه.

يقظًا لمداخل الشيطان وحيله عليك.

يقظًا لهوى نفسك وشهواتك ونزغات النفوس.

ينبغي أن تكون يقظًا، فلا تركن إلى الغفلة، ولا تَسْتَحْلِ الرقدة، وتأمل إيقاظ الله تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿يأيها المُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا﴾[٥].

---

(١) ذكره الحافظ في الإصابة(٣/ ٢٨٧) بإسناد فيه ضعف، والمقصد الاستشهاد ليقظة قلوب الصحابة قبل الإسلام وإسلامهم بمجرد سماع القرآن، وشواهده كثيرة معلومة بالضرورة أن النبي ﷺ كان يعرض عليهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن فيسلمون، ويستجيبون لله ورسوله .

(٢) آل عمران:١٤٤.

(٣) الخبر أخرجه بطوله البخاري في "فضائل الصحابة"(٣٦٦٧-٣٦٦٨).

(٤) الذاريات:٥٦.

(٥) المزمل:١-٢.

﴿يأيها المُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].

قال عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله-:

ومن الناس من يعيش شقيًّا جيفة الليل غافل اليقظة

أخي المسلم ... أختي المسلمة ...

إذا يئست من عد نعم الله عليك، فانظر هل تستطيع عد ذنوبك؟ وانظر هل أحصيت هذه النعم شكرًا وعرفانًا؟

فاستيقظ من غفلتك، وانظر كم عليك من الديون لمولاك؟ فسارع ولو بأداء القليل؛ فإنه سبحانه جواد كريم، يقبل القليل ويثيب عليه الكثير.

❁❁❁

(١) المدثر:١-٧.